إسلامية المعرفة ، منهج لتحرير العقل

حكمة الله فى خلقه : وحدة مع تنوع !!
ليكن مثالنا ، نحن البشر ... الإنسان

انظر فمن حولك ممن تعرف وممن لا تعرف ، متأملا ما هم عليه من أجسام وأشكال ، من ألوان وصور ، ودقق النظر فى التفاصيل : شكل العين .. الأنف .. الفم .. النسب الخاصة بين كل مكونات الوجه .. فى الصوت .. إلخ ، لن تجد توحدا أبدا ، وإنما تعددا واختلافا وتنوعا ، ربما بقدر ما يوجد من بشر ، ومع ذلك فلن ينازعك أحد فى أن هذا التعدد والتنوع ، مهما كثر ، فلا يتفى أبدا أننا بازاء (إنسان) ، يختلف بمجموع أفراده عن (النبات) و (الحيوان) و (الجماد) .
إننا هنا أمام الشخصية الإنسانية ...

وفى داخل أفراد النوع الإنسانى نفسه ، انظر إلى نفسك : طفلا يحبو ، فصبيا يعدو ، فشابا يعمل ، فرجلا مسئولا .. اليوم هنا فى هذا المكان ، وربما كنت بالأمس فى مكان آخر ، وغدا من المحتمل أن تكون فى مكان ثالث ..

حالات لا حصر لها من الوقائع والأحداث والأحوال تمر بها ، ومع هذا التنوع والتعدد تظل أنت هو أنت : فلان ، فلكل شخصيته الفردية التى تجعله متميزا عن غيره من الناس ، وتجمع شتات أحواله على مر الأعوام والعهود .

هذه السنة الإلهية فى الجماعة البشرية ، لها فعلها كذلك فى حضارات الإنسان على مر العهود وعلى مر العصور ..

فكم من الحضارات شهد التاريخ ؟

كثير بطبيعة الحال ..

لكنك إذا أردت أن تسوق أمثلة من هذه الحضارات ، فسوف تسمها بسمة بعينها : فهذه حضارة هندية وتلك حضارة مصرية قديمة ، وهذه حضارة يونانية وتلك حضارة رومانية ، وهذه فينيقية .. إلى غير هذا وذاك من حضارات .
إن هذه السمة ليست مجرد تمييز (لمكان) وإنما هى فى الوقت نفسه تمييز (لشخصية حضارية) تجعل للحضارة المصرية القديمة تميزها عن الحضارة الهندية ، وتجعل للحضارة

اليونانـــية قســـماتها التى تميزها عن الحضارة الصينية . ومن آيات ذلك (العمارة) ، مثلا ، فلـــن يخطـــئ الـــدارس المتأمل ، إذا أبصر بعضا منها ، أن يحكم بأن هذه عمارة (فرعونية) وتلك (رومانية) ، وأن هذه (هندية) وتلك (غربية حديثة) ..

وإذا كان التمايز بين الحضارات يتبدى فى مختلف المجالات والميادين ، إلا إننا إذا ما تنبهنا إلى أن الإبداع الحضارى ، وهو نشاط بشرى ناتج عن تسليط جهد العقل وفعل التفكير علـــى جملة تفاعلات الإنسان مع مختلف مظاهر الكون ، ومع غيره من البشر ، ومع مظاهر الطبيعة من نبات وحيوان وجماد ، لتيقنا من أن نجاح هذا الجهد العقلى إنما يكون بقدر التناغم بـــين مـــنظومة الفكـــر الناتج هذا وبين منظومة الكون ، فعناصر الكون ومكوناته تتكامل فى (هارمونية) لا تخطئها عين باحث ومتأمل ، مما يوجب على العقل المتعامل معها أن ينطلق ، فى تفاعله ، من تصور شمولى لهذه المنظومة الكونية بحيث تجئ منظومة الفكر الناتج متسقة الأجزاء ، متناسقة الأركان ، منسجمة الأهداف .

إن هذه المنظومة الفكرية الناتجة عن تفاعل العقل البشرى مع المنظومة الكونية ، هى ما يمكن تسميته بـــ (المعرفة) .

وبهذا كان لكل حضارة منظومتها الفكرية (المعرفة) التى تتمثل فيها تصوراتها عن المنظومة الكونية .

والمـــنظومة الفكـــرية ليســـت مجرد (نواتج) عقلية تمثل (حاصلات معرفية) من معارف وحقائق ومعلومات وقوانين ، وإلا تحولت إلى (ركام) و (حشد) لا فاعلية فيه ولا دور له وإنما تكتسب الفاعلية وتستطيع القيام بدور حضارى ملموس بامتلاك (منهج التفكير) الـــذى بـــه يحصـــل الإنسان على المعلومات ويصنفها ويفهمها ويصل إلى دلالاتها ويستنبط القوانين ويرسم الأطر ويرسى القواعد والأسس ويشكل النظم والمعاملات .

والأمـــة الإســـلامية لا تستطيع أن تحيا على غير هذه السنة الإلهية ، بل هى ، بحكم دينها ، مدعوة أكثر من غيرها إلى تمثل هذه السنة .
ومن هنا تجئ أهمية الدعوة إلى إسلامية المعرفة ..

فماذا نعنى بهذا المصطلح ؟

إنهـا تعنى ، فيما يؤكد الدكتور (عماد الدين خليل) : " ممارسة النشاط المعرفى ، كشفا وتجميعا وتوصيلا ونشرا من زاوية التصور الإسلامى للكون والحياة والإنسان " .

ويضع البعض علامة استفهام أمام (التصور الإسلامى) هنا أو (الإسلامية) زاعمين أن المعـرفة ، إذ تكون جهدا بشريا ، فهى نتائج عمل الإنسان وفعله ، وأن الدين هو علاقة بين الإنسـان وربه تقتضى من الإنسان الإيمان بالله والسلوك مسلكا أخلاقيا فاضلا ، وما عدا ذلك مـن نظـم معرفة ، فمجاله اختيار بشرى وفعل إنسانى ، تحكمه الخبرة والمصلحة ، وتقدح زناده الاجتهادات الخاصة .

والـرد على وجهة النظر هذه يقتضى شرحا مستفيضاً لمفهوم الدين فى الإسلام ، مما لا يتسـع لـه المجـال ، ويكفـى فقط الإشارة إلى ما اجتمع عليه الكثيرون من أن الإسلام (منهج حياة) ، وهو بهذا الاعتبار لابد أن يكون إطارا تتأطر به كافة المناشط البشرية سواء فى مجال العقيدة أو السلوك أو البناء الاجتماعى أو العمل العلمى .

ثـم إن الدارس لكتاب الله عز وجل الذى نزل به الروح الأمين على رسول الله صلى الله علـيه وسـلم لابـد أن تسـتوقفه تلك الكلمة الأولى فى الوحى الإلهى بدعوة الإنسان إلى المعـرفة : (أقـرأ) التى لا يقف معناها عند حدود التعرف بالعين على الكلمات المسطورة على ورق ، فلم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم بقارئ ، وإنما هى تتسع لتشمل معنى كليا فـيه يفـتح الإنسـان نوافذ عقله ووجدانه لكى (يعلم) ما لم يعلم ، و (يعرف) و (يعى) وينمو عقلا وفكرا ، وينضج وجدانا وصح جسما .

والقـراءة إذ تجـئ باسم (ربك) .. باسم الله ، فهى موجهة إذن توجيها ربانيا ، فى المنطلق ، وفى قواعد السير وفى المقصد والغاية .

إن حكمـة الله فى ذلك ، أن قطبى التعامل : الإنسان والعالم ، هما من صنع الله الذى أتقن كل شئ ، فمن الطبيعى إذن أن تتشكل مفردات هذا التعامل من منظور الإيمان بالله خالق الكـون والحـياة والإنسان .. وكان من الطبيعى أن تسلم المعرفة بهذه الحقيقة الكبرى ، أى تكون (إسلامية) بهذا المعنى الواسع الذى يضع الأمر فى نصابه من نطاق الملكوت الإلهى ونواميسه .

إن العـــالم الإســـلامى يواجه اليوم تحديا متصلا من الدول الصناعية ، وذلك مرده ، بصـــفة جزئية إلى الموقع الاستراتيجى للعالم الإسلامى ، والثروة البشرية والمادية ، كما أنه يـــرجع أيضـــا ، وبصفة جزئية ، إلى الركام المتكاثر من الإجحاف والتحيز والتحامل الدينى الواقع عليه .

لقـــد أصـــبح حزام الدول الإسلامية ميدانا للتنافس المتصاعد بين القوى المعربدة . إن نـــزاعات الحـــدود فـــى المـــناطق المختلفة أصبحت - غالبا - موجهة لخلق أسواق حاضرة للأسلحة والذخائر ، لكى تبقى هذه الدول مرتبطة ومنشغلة عن دفع عجلة تقدمها أو رفع معدل نموها ، وبحيث تظل تحت الخضوع الدائم والمستمر والتأثير المتصل الواقع عليها من الدول المتقدمة .

والســـبيل إلـــى مواجهة هذا التحدى ، إنما هو بتحرير العقل المسلم من التبعية وبنائه بناء إسلامياً ..

وبـــذلك فإن الأمة الإسلامية أمامها مهمتان : الأولى ، أن تبنى ذاتها ، وثانيتها ، أنها وهـــى تبنـــى ذاتهـــا ، عليها مواجهة عوامل (الخارج) القاهرة المستغلة المعوقة . وهى لا تستطيع أن تفعل ذلك إلا بقدر ما تعنى ما يوجبه السباق الحضارى من قدرة على التمييز بين (الـــتلاقح) و (الـــذوبان) .. بين (الذاتية) المستفيدة من الغير ، والمفيدة له ، وبين الدونيه والتبعية والذيلية .

ويخطـــئ البعض عندما يرفع راية (عالمية الحضارة) ، لأنه هنا يتجاهل ، إن عمدا وإن ســـذاجة ، التفـــرقة بـــين (عالمية العلم) و (خصوصية الثقافة) ، فالقوانين التى تحكم حـــركة الظواهر المادية وعلاقاتها ، مثلما نرى - مثلا - بالنسبة للقوى التى تعمل داخل قوى نـــواة الـــذرة ، علم لا يختلف باختلاف الأمم والشعوب ، ولكن هذا العلم يتحرك داخل ثقافة اجتماعـــية تحكمهـــا قـــيم وعادات واتجاهات ومعايير ، وتختلف من هنا إلى هناك . بل إن (العلـــم) نفسه ليس مجرد هذه الأنساق المعرفية المعروفة من فيزياء وكيمياء وبيولوجى .. إلـــى آخره، وإنما هناك ما يمكن تسميته (علم العلم) ، Sicience of Science الذى يتناول (أكســـيولوجيا العلم) ، وهى ما يعرض للبحث فى القيم والمثل العليا ومدى ارتباطها بالعلم وخصـــائص التفكيـــر العلمـــى ، وكذلك (سيكلوجية العلم) التى تبحث فى العمليات النفسية والعقلـــية التـــى تتعلق بالكشف العلمى وما يقترن بها من قدرات إبداعية وخيالية موجهة لحل

المشـــكلات العلمـــية ، وأيضا (سوسيولوجيا العلم) ، وتعنى بالبحث فى التفسير الاجتماعى لتطور النظريات العلمية ومدى تقبل المجتمع لها .. وهكذا .

ومـــن هـــنا فلا تقتصر الدعوة إلى الذاتية الحضارية على ما تتناوله العلوم الإنسانية وحدها وإنما تمتد لتشمل سائر لعلوم أيا كان مجالها .

ويمكـــن أن نسوق مثالا واحدا – وهناك غيره فى علوم أخرى متعددة – لمجال مثل مجال (الطب) نتبين منه كيف تضع (الإسلامية) مجموعة من القواعد والأسس والقيم التى ينبغـــى أن تحكـــم الممارسات الطبية ، فى دراسة للدكتور أحمد شرف الدين ، تناول القواعد الكلية فى المجال الطبى والجراحى ، وقسمها إلى ثلاث طوائف :

الأولى : قواعد التصرف فى الحق فى سلامة الحياة والجسد .

الثانية : قواعد المفاضلة بين المصالح والمفاسد .

الثالثة : قواعد مزاولة العمل الطبى أو الجراحى .

وقد استنبط الباحث من الفقه الإسلامى عددا من هذه القواعد ، على سبيل المثال ، مما يتصل بحق التطبيب والجراحة :

١- إذا أوجب الشارع شيئاً ، تضمن ذلك ما يتوقف عليه .

٢- التطبيب واجب ، كما أن التداوى واجب .

٣- لا تـــنقلب الرخصـــة التى أنشأها الشرع للطبيب أو الجراح بممارسة عمله على أجسام الناس إلى حق إلا برضاء المريض .

(ويســـتثنى من ذلك ، حالات الاستعجال والضرورة (المسلم المعاصر ، العدد ٣٧ ، ص ١٤٠).

ولعـــل الطريق المستقيم إلى إسلامية المعرفة ، فى رأينا ، إنما يبدأ من ضرورة إعادة النظـــر فى نظام التعليم ، فمن أفدح الخطايا التى ارتكبت فى حق هذه الأمة ، تلك الازدواجية المؤســـفة بـــين (تعليم دينى) و (تعليم مدنى) .. ازدواجية عزلت التعليم الدينى عن حركة التطور الحضارى ومنجزات العلوم الحديثة ، وأفرغت التعليم المدنى من مضمونه الذى يصله بعقل وقلب حضارة هذه الأمة .

ولـــنا فى هذه الدعوة سندا من تلك القسمة الأساسية ، ألا وهى أنها أمة (التوحيد) ، فماذا نعنى بتميز الأمة الإسلامية بالتصور التوحيدى للكون ؟

إنـــه يعنـــى ، فـــيما يذهب د.محمد عمارة فى كتابه (الاستقلال الحضارى) " قسمة التوازن والموازنة بين المتقابلات والمتناقضات ، واتخاذ الموقف الوسط العادل ، الذى يؤلف بـــين مـــا يحسبه الآخرون فى حضارات أخرى ، غير قابل للتأليف ، بل والمؤاخاة بين هذه المـــتقابلات ، بنظرة شمولية تثمر (الموقف الثالث) .. الوسطى ، بمعنى العادل ، والرافض لكـــلا الموقفـــين المتطرفين الباطلين ، لأن كلا منهما قد جاء ثمرة للنظرة الوحيدة الجانب – الجزئية – القاصرة – التى لم تبصر سوى قطب واحد من أقطاب ظاهر الكون " .

وقـــد عبر الإمام أبو حامد الغزالى عن هذه الحقيقة فى كتابه (الاقتصاد فى الاعتقاد) بقوله " إن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا ، فنظام الدين ، بالمعرفة والعبادة ، لا يتوصل إليهما إلا بصحة البدن ، وبقاء الحياة ، وسلامة قدر الحاجات ، من الكسوة والمسكن والأقوات والأمـــن .. فـــلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية ، وإلا فمن كان جمـــيع مستغرقا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة ، وطلب قوته من وجوه الغلبة ، متى يفرغ للعلم والعمل وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة ؟ فإذن : إن نظام الدنيا ، أعنى مقادير الحاجة ، شرط لنظام الدين " .

والخطـــوة الثانـــية هى تأليف كتب دراسية تتناول موضوعات مختلف العلوم من هذا المنظور لإسلامية المعرفة .

ويرتبط بهذا وذاك ارتباطاً وثيقا ، أن نعب من منهلى الثقافة الإسلامية وعلوم العصر بأقصـــى مـــا نستطيع من جهد. وارتباط العملين معاً ، جوهرى أساسى ، ذلك أن العمل على جبهة منهما دون الأخرى ، يفقد نفس الجبهة ، القدرة على التعامل مع الأخرى . ولعل لنا فى التجـــربة الحضارية فى الوطن العربى فى مطلع العصر الحديث أمثلة حجية ودلالة ، ولنا فى عـــدد كبير من رواد الفكر والثقافة فى الوطن العربى فى مطلع العصر الحديث أمثلة أخرى ، كمـــا رأيـــنا فى الطهطاوى ، والدكتور أحمد زكى ، وعباس محمود العقاد ، والدكتور هيكل، والدكتورة عائشة عبد الرحمن ، فهؤلاء إذ تسلحوا بالثقافة الإسلامية الأصلية ، وإذ هم يعبون مـــن علوم العصر ، كل فى مجاله ، جاء فكرهم إسلاميا ، محرزا نجاحاً ملحوظاً فى التعامل مع معطيات العصر .

ومـــن ســـبل ذلك أيضا ، إن لم يكن أخطرها ، (المعلم) الذى نسلمه أبناءنا وبناتنا ، فهـــو يعـــد فى كليات تربية تصطنع المنهج الغربى وحده وخاصة فى علوم التربية والنفس ، التـــى هى ألصق مناطق المعرفة بوجدان الأمة وقيمها وعقيدتها ، وبالتالى فإن ممارسة المعلم للعملـــية التـــربوية لأجيالـــنا المتتالـــية تجئ على نفس المنوال ، وليس مما يطمئننا أن نكتفى بتخصـــيص ساعات للثقافة الإسلامية فى المدارس والجامعات ، إذ قد ينتهى الأمر بها إلى أن تشـــكل مجـــرد (تجاور) بين علوم إسلامية وعلوم معاصرة ، ويظل كلاهما بلا (تلاقح) وإنمـــا الأمـــر الأهم هو : منهجية التفكير ، التى ننشئ عليها المعلم ، وإلى أى حد تقوم على الـــنهج الغربـــى ، الـــذى نرفضه ، عندما يقيم فصلا بين الدنيا والدين ، أم هى تتمثل المنهج الإسلامى التوحيدى ؟

إن المعـــرفة الإســـلامية تعنـــى وتتمـــثل بالضـــرورة القدرات والإنجازات العلمية والحضـــارية الصحيحة كافة ، تلك التى توارثتها البشرية وأنتجتها ، بعد أن تمحصها وتزنها بعيون الإسلام وشمولية قيمه وتوجيهه وغايته .

المعرفة الإسلامية تعنى معرفة ناقدة بصيرة تتمثل وتتمكن من كل معرفة صحيحة .

المعرفة الإسلامية ، تعنى معرفة تصدر عن قيم الوحى وغايات الرسالة وتتصل بكل صحيح ونفيس من تراث الأمة وفكر علمائها ومفكريها على مر العصور والقرون .

وبمـــثل هـــذه المنهجية يتحرر العقل الإسلامى ويتحول إلى طاقة إبداع حضارى يعيد للأمة الإسلامية أو يضعها على الطريق الذى يجعل منها بالفعل (خير أمة أخرجت للناس).